الروح المصرية الصميمة

يجب ان تنبعث فى دمائنا وتفكيرنا وتاريخنا

بقلم الأستاذ سيد قطب

ليس فى أمم العالم من تلوك ألسنتهم عبارات الفخر بالأجداد والمباهاة بالماضى والتشدق بالمجد القديم كالمصريين ، ولا سيما بعد نهضة مصر الحديثة ، وشعور أبناء الجيل بحاجتهم إلى سند من مجد التاريخ لما يطلبون من مجد حديث .

وليس فى أمم العالم كذلك من هو منبت عن ماضيه منقطع الصلة الروحية عن قديمه ، جاهل بحقيقة تاريخه كالمصريين ، الذين لا تربطهم بماضيهم العظيم إلا معرفة غامضة ومعلومات ناقصة أو مشوهة .

لهذا كان الفخر بالماضى فى مصر فخرا سطحيا تلوكه الألسن ولا تستشعره القلوب وتصرخ به الألفاظ ولا تعيش به الدماء ، ويستمد قوته من الجعجعة لا من الحياة وتهبط سورته بانقضاء مناسبته السياسية ولا يبقى بعد ذلك حافزا دائما للنهضة والطموح .

ولم يكن بين أمم الأرض ولن يكون من هم أعجب من هؤلاء المصريين الذين يملكون أمجد تاريخ ويتصلون بأعظم ماض ثم يفرطون فى هذا التراث كله ، ويتركونه ليد التشويه والإهمال والجهل عشرات المئات من السنين ؛ حتى إذا نهضوا نهضتهم ، وأحسوا بالحاجة الى تراثهم الثمين ، لم يفتشوا عن هذا التراث ؛ ولم يستنقذوه من الزيف ، ولم ينفضوا عنه ركام القرون ، وإنما راحوا يكتفون بجعجعة جوفاء : نحن بناة الهرم . نحن أبناء الفراعنة الأمجاد . نحن أبطال التاريخ ... إلى آخر ذلك الصياح الأجوف المملول !

وبقيت بعد ذلك مصر الفرعونية . مصر القديمة الخالدة . مصر العريقة فى منابت الزمن الضاربة فى مجاهل التاريخ ، بقيت مصر هذه وهما غامضا فى نفوس الهاتفين ، لا يعرفون عنها إلا ما رواه بعض المؤرخين القدماء من الخرافات والأباطيل مما كشفت البحوث الحديثة عن زيفه ، ولكنه بقى يدرس فى المدارس المصرية . وهو على ما فيه من أخطاء لا يبلغ أن يكون تاريخا حيا ، وإنما هو مقتطفات سريعة ووقائع منفصلة وحوادث للملوك لا ذكر فيها للشعب ، ولا بيان عن حاله ، مما يجعلها مملة مبتورة لا تعلق بنفس ولا تنبض بحياة .

ولم يبسط هذا التاريخ بسطا متسلسلا حيا ، على أنه وصف لحياة أقوام وأجيال عاشوا فعلا على هذه الأرض عيشة طبيعية فى عصر من العصور ؛ حتى يشعر المصرى الآن بما بينه وبين أجداده من وشائج القربى وصلات الاحساس وروابط التفكير ، وعلاقات التقليد . فيحس حينئذ أنه امتداد لهؤلاء الأجداد ، وأن بينه وبينهم صلة من الدم ورابطة من الحس وعلاقة من العادات ومشابه من الحياة على الرغم من الزمن الطويل السحيق .

والأمم التى تريد النهوض ولا تجد لها ركيزة من الماضى تزور لها تاريخا وتحاول أن تنفخ فيه روح الحياة ! وتتصيد لها أبطالا من كل نوع ، وتلتف حول ذكراهم ، لأن الحاضر والمستقبل يرتكزان على الماضى ارتكاز سوق النبات على جذوره .

أما مصر الخالدة التى عاملها التاريخ بسخاء عجيب فحفظ لها ماضيها خالدا ماثلا على مر الأجيال ، فلا تحاول أن تنتفع بهذه الميزة المفردة ؛ وتكتفى من هذا الماضى كله بألفاظ جوفاء وصيحات فارغة حتى فى عهد نهضتها وإبان بعثها فى العصر الحديث .

وحيثما سار المصرى الآن يجد مصر القديمة العريقة ماثلة فى الآثار والتماثيل والكتابات الأثرية وفى كثير من العادات والتقاليد والألفاظ التى صانها الزمن من يد النسيان ونقلها خلال هذه الأجيال . ومع هذا فلا يفتح قلبه ليسمع نداء هذه الأطياف السارية فى مجاهل الأبد ، وإنما يقف كالأبله أمام آثار أجداده التى تهتف أرواحها الحية به وهو عن ندائها أصم !

كتب المرحوم عبد القادر حمزة باشا فى مقدمة كتابه العظيم "على هامش التاريخ المصرى القديم" يقول :

" زرت الأقصر فى سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك توت عنخ آمون الذى كان مستر هوارد كارتر قد اهتدى اليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون ، فزرت فى الوقت نفسه كثيرا من قبور وادى الملوك ووادى الملكات ، وزرت الدير البحرى ومعبد الكرنك ، وكنت نازلا فى فندق "ونتر بالاس" فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ؛ ولكنى لم أجشم نفسى عناء دخوله . ووقع فى يدى وأنا فى الفندق كتاب "طيبة" للأستاذ "كابار" وقيل لى : إن ثمنه مائتا قرش فترددت فى شرائه ولكنى اشتريته . ثم عدت الى القاهرة وفى نفسى من ذلك كله أثر غامض . وقرأت الكتاب فخيل إلى أن الآثار التى مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظرى رويدا رويدا ، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثنى عن مجد عجبت من أننى لم أجد فى مدارس الحكومة التى تلقيت فيها تعليمى فى جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث فى الذهن فكرة عنه .

" وحفزنى ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى، فزرتها فى سنة ١٩٢٦، ولكن الزيارة فى هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار .

وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفا بمصر القديمة، فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى مع أنى قد زرته من قبل مرتين، بجمعت أزوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد .

"وتكررت زياراتى للآثار وانكببت على المؤلفات التى وضعها علماء "المصرولوجيا" فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى، وكأنى أمتلىء بذلك زهوا، وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذى يبذله لها الأجانب، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الإغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

" وكان من الضرورى أن أقرأ هذه المؤلفات أو بعضها على الأقل مرة وثانية بل ثالثة فى بعض الأحيان . فلم أجد فى ذلك كلفة ولم ينقص التكرار شيئا من متعتى بالقراءة لأنى كنت أفهم فى الثانية ما يبهم على فى الأولى، وأنفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنى فى الثانية" .

فى هذه الفقرات قص المرحوم عبد القادر باشا قصته مع مصر القديمة، وهى قصة كل شاب مصرى ينشأ و يكبر و يغادر مقاعد الدراسة دون أن يعرف عن مصر شيئا ذا قيمة، ودون أن تعقد الصلة بين وجدانه و بين هذا الماضى البعيد، ودون أن يساير تاريخ بلاده خطوة خطوة حتى ينمو فى شعوره و يتجسم فى إحساسه، و يشخص فى خياله كائنا حيا يعاطفه و يناجيه، فيحب هذه الأرض لأنها تضم ذلك الماضى الذى كانت مسرحا له فى غياهب التاريخ .

ومن هنا يقف المصرى وقفة البلاهة وعدم الفهم أمام آثار بلاده وتماثيل أجداده، لأن تلك الآثار وهذه التماثيل قطع جامدة ميتة لا تصله بها صلة من المعرفة، ولم تحاول المدرسة أن تبعثها حية فى خياله نابضة فى ضميره، وهى لا تستطيع أن تصنع هذه المعجزة . معجزة بث الحياة فى آثار جامدة وأخبار غابرة، إلا أن تصور الماضى تصويرا كاملا شاملا، وإلا أن تصف حياة ذلك الشعب المتسلسل فى أجياله وصفا حيا ناطقا . لا أن تكتفى بالنبذ المتقطعة والحوادث الحربية والسياسية، على ما فيها من خرفات وأضاليل .

والتاريخ الشعبي لا تطلب معرفته لمجرد المعرفة — على ما فيها من لذة ومتعة — ولكن هذه المعرفة ضرورة وطنية وقومية واجتماعية . بل ضرورة شخصية فى بعض الأحيان .

فهى ضرورة لتطبع الناشئ حين تختلط بحسه وتمازج نفسه فى مراحل الدراسة بطابع القومية الخاصة بشعبه ، ولتشعره أنه فرع من دوحة قديمة ، فرع من فروع هـذه الدوحة مشابه وله بها صلات حية كامنة فى الجذور والأغصان . وليس حب الوطن إلا هذا الشعور المبهم الوثيق . والفرد حين يشعر على هـذا النحو تنمو فى نفسـه وجدانات التعاون والتوادد بينـه وبين المواطنين المتفرعين من دوحة قديمة لا تزال خالدة تنبثق منها الفروع والأفنان وجذورها وثيقة بالتربة الخالدة وراء الأجيال ، ثم يشعر هو نفسه بالكثير من العظمة حين يشعر بامتداد أصله وتوثقه ، وبمقدار ما يشغل من فراغ الدنيا ، وحلقات الزمان . ثم تتسع نفسه حين تنفعـل بآلاف الحوادث والمواقف فى تاريخه القـديم انفعال القرابة والمشاركة بين القريب والقريب ، فاذا هى نفس مبلورة أو هى ملخص لملايين النفوس التى سبقتها على مسرح هذا الوطن العريق .

فالأعمال العظيمة ومواقف البطولة والحوادث الجسام والآمال والآلام ، وجميع ماحوته تلك الأحقاب الطويلة من تاريخ الوطن ، إنما هى روافد لنفوس كل جيل ، وحوافز لمشاعر كل فرد ، وليس الغابرون فى مسارب الزمن جثثا هامدة مزحاة فى الأكفان مطمورة فى الرمال . وإنما هم ذوات حية يمكن أن تقع لهم معجزة البعث فى كل لحظة فينتفضون شخوصا يشاركوننا هذه الحياة الحاضرة ويدبرون معنا أمرها ، ويزودوننا بتجاربهم ونصائحهم . وتلك المعجزة فى عداد الممكنات طالما أن خيالنا مستطيع أن يطل على مسرح الماضى ، وأن يتفعل بحوادث التاريخ .

كيف نصنع المعجزة؟ كيف نبعث الموتى ، ونهض بالماضى ، ونجسم التاريخ ؟ .

إن الزمن الذى عامل مصر بسخاء عجيب حفظ لها آثارها وتاريخها ليجعل هذه المعجزة أمرا هينا . فعلى مرأى منا ومسمع تطل مصر الفراعنة وتهتف ، وما علينا إلا أن نلق بالنا إليها فتتم المعجزة من أيسر طريق .

وفيما تقدم من القول إجمال نفصله هنا بعض التفصيل :

إن الكتب التى بأيدى تلاميذ المدارس اليوم عن مصر يجب أن تنزع وتلق بعيدا عن متناولهم حتى لاتشوه لهم تاريخ بلادهم ولا تحيله جامدا ميتا لاروح فيـه وحتى لاتخلق بينه وبينهم حفوة توصد نفوسهم دونه كما هو حادث الآن إذ أن مئات الأسماء للملوك وللحوادث الحربية وللأمكنة وللتواريخ الرقمية التى حدثت فيها تصد الناشئ عن هذا التاريخ وتكرهه فيه لأنه واجب ثقيل لا حياة فيه .

يجب إذن أن تختفى هذه الكتب المؤذية ، واختفاؤها هو واجب وطنى قبل أن يكون واجبا علميا ، كما أن بقاءها جريمة فى حق الوطن لن يغفرها لهذا الجيل .

فاذا قذفت هذه الكتب إلى الجحيم - فيجب أن تحل محلها كتب أخرى متدرجة حسب مراحل الدراسة . ففى المدارس الابتدائية تستبدل بها كتب قصصية عن حياة المصريين تصور هذه الحياة تصويرا صحيحا ، وتشتمل على عاداتهم وتقاليدهم و بعض عقائدهم وأناشيدهم ، حتى تتجسم فى هذه المخيلات الصغيرة صورة شاخصة لمصر الفرعونية لا أثر فيها للسرد الممل ولا للتواريخ الرقمية للحوادث إلا ما تيسر فى ثنايا القصص المحبوب .

وفى المدارس الثانوية تدرس سير بعض الأبطال القدماء بحيث تشمل هذه السير تاريخا للحوادث فى عصرهم ووصفا لحالة الشعب و بسطا لعاداته وتقاليده ودياناته وكثيرا من أناشيده فى مواسمه وأعياده ، ودرس السير الشخصية من ألذ وأمتع الدراسات ، وهو فرصة لتصوير حياة الشعوب وحوادثها فى خلال حياة الشخصية المدروسة وهو فى مرحلة الدراسة الثانوية بالذات — وهى مرحلة المراهقة — أنسب طرق الدراسة وأبعث مايكون لخيالهم الخصب وعواطفهم المشبوبة واستعدادهم للتشبه بالأبطال — ولا سيما حين يكون أولئك الأبطال من دمهم ومن عنصرهم .

والتاريخ المصرى غنى بالشخصيات التى تملأ سيرتها كتبا كاملة وتقوم حولها روايات عظيمة . فمينا ورمسيس وأحمس وتحتموس وتوت عنخ آمون وأمنحوتب وأمثالهم يمكن أن تكون سيرهم مرآة لسيرة الجيل فى غير تكلف ولا تحمل .

وفى المرحلة الجامعية يدرس التاريخ المصرى دراسة بحث وتمحيص ، و يختار عصر من عصوره لكل فرقة أو كل مرحلة ، على أن تكون دراسة اشعب هى العنصر الأساسى لا دراسة الحوادث والملوك .

وفى التاريخ المصرى كثير من الأساطير . فحول هذه الأساطير وحول الحوادث التاريخية كذلك والأشخاص الوهميين أو الحقيقيين ينبغى أن تحاك القصص والروايات والأفلام و يوضع ذلك كله فى متناول التلاميذ والطلاب حسب أعمارهم وثقافتهم . للقراءة والمشاهدة والتمثيل .

وفى ثنايا تلك القصص والروايات تتبين العقائد القديمة والتقاليد التى كانت مرعية ، وتبرز بصفة خاصة العقائد والعادات والألفاظ التى لا تزال حية تعيش بيننا إلى اليوم . و ينبه إلى الأساطير التى لا تزال سارية بيننا مروية فى الريف إلى هذا العصر . وفى مصر من ذلك الشىء الكثير .

وليس أفعل فى النفس من عرض هذه الأشياء الباقية إلى الآن، فإن بقاءها حية ينشط الخيال إلى إحياء الماضى و إدماجه فى الحاضر و إلى الشعور بالتسلسل والارتباط بين الأجداد والأحفاد على الرغم من حواجز الزمن وتقلب الدول وتتابع الحكام على وادى النيل .

والأناشيد المصرية القديمة فى الحفلات والمواسم تعيد إلينا اذا حفظت وأنشدت نفحة من مصر القديمة وقد أحسنت محطة الإذاعة مرة فأذاعت حفلة وفاء النيل فى مصر الفرعونية. وفى هذا اليوم طار خيال المستمعين وراء أجهزة الإذاعة فتخيلوا مواكب فرعون وتراتيل المنشدين وهتاف الجماهير وألحان الموسيقيين . وأحس كل مصرى أن هذا المشهد شاخص على ضفاف الوادى وأن الفراعين مبعوثون تموج الضفاف بأجنادهم ومواكبهم من وراء القرون .

فلم لا يكون فى برامج المحطة الشهرية حفلة من هذه الحفلات أو إذاعة تشبهها ، وهى وسيلة من أقوى الوسائل لإحياء التاريخ وتجسيم المشاهد وتشخيص المواقف وتصوير الأحاديث ؟

وقد كانت فى مصر مواسم لوفاء النيل وحصاد القمح والنيروز وتنصيب الملوك وتقديم القرابين، فلم لاتبرز هذه المشاهد ولا تحيا هذه المواسم على أنها شطر من التاريخ وقطعة من الزمان وفصل من فصول الرواية الإنسانية الطويلة ؟

وهذه الآثار والتماثيل يجب عقد الصلة بينها و بين نفوس التلاميذ والطلاب بتكرار زيارتها وشرحها لهم شرحا وافيا ، و إيجاد الارتباط بينها و بين مايدرسون فى كتبهم وما يتلقون فى دروسهم . وحينئذ تنقلب هذه المخلفات الجامدة حية تحدثهم عن نفسها وتشرح لهم تاريخها وتشير إلى الروابط الوثيقة بينهم و بينها فتعيش فى أوهامهم عيشة الأحياء المبعوثين .

ولعل من أعجب الأشياء أن توضع العراقيل بين المصريين و بين آثارهم بالرسوم والقيود مع أنهم راغبون فى الأصل عنها لجهلهم بها . وكان المعقول أن يقوم المسئولون بدعاية عامة لزيارة هـذا الآثار مع تيسير كل سبيل إليها ومع توزيعها فى كل مكان حتى يسهل " تصنيفها " وزيارتها .

فرسم الدخول للمتحف ورسم دخول الأهرام يجب أن يزالا — ولو مؤقتا — حتى يألف المصريون تاريخهم وحتى يشعروا باللذة فيه والشوق إليه وحينئذ لا مانع من الرسوم والقيود.

وهذا الرسم سهل نسبيا إذا قيس إلى نفقات الحياة والسفر إلى الأقصر وأنس الوجود فهى تكاليف لايقدر عليها إلا المترفون الذين لايحسون لهذه الآثار معنى لأن معظمهم غريب عن العنصر المصرى لاتربطه به إلا رابطة الجنسية القانونية !

فعلى المسئولين تقع تبعة هـذا التعقيد ؛ ولكن المسئولين وحدهم لن يستطيعوا التغلب الكامل على العوامل الاقتصادية وشئون الاستغلال . فيجب أن تنهض بذلك جماعة تأخذ على عاتقها مهمة الدعاية للتاريخ المصرى ولمصر الفرعونية ، ومهمة تيسير الوسائل لزيارة آثارها فى كل مكان بنفقات معقولة يقدر عليها الأوساط من الناس بله الفقراء المحرومين .

ويبقى من وسائل بعث مصر القديمة : العمارة القومية وذلك موضوع عويص طويل . فالعمارة فى مصر شأنها عجيب ، ومدينـة كالقاهرة أصبحت معرضا غريبا لمختلف صنوف العمارة التى لا تربط بينها رابطة والتى لا تقوام لها ولا اتجاه .

والمفروض أن العمارة تعبير عن روح الشعب وقوميته كبقية الفنون ، فأين هى الروح المصرية التى تعبر عنها العمارة الحاضرة ؟ إنها خليط من كل شعب ومزيج من كل عصر ؛ تتوه فيها شخصية الأمة فلا يعثر عليها من يتفقدها فى عمارتها .

وهـذه العمارة المشوهة المختلطة تباعد بيننا وبين التاريخ ، وتفصل بيننا وبين ماضينا العريق فيجب أن نضع تصميمات معمارية مصرية تبرز فيها شخصيتنا الكامنة ، وأن نعممها فى كل مكان عن طريق القانون فى كل مايجد من منشآت حتى نتدارك هذا الخلط الشنيع . وفى الآثار المصرية فى مختلف العصور رصيد وافر لأزياء العمارة التى نريدها للعصر الحديث .

* * *

وأخيرا نذكر أن بعد المسافة بين الأجيال البعيدة والأجيال الحاضرة وما تراكم حولها من غبار الزمن وتقلب الدول وانقطاع المعرفة بين الماضى والحاضر يخيل لمن ينظر النظرة الأولى أن مصر الفرعونية قد استحالت مجرد ذكرى فى خيال الزمان .

والحق غير ذلك ، فالفلاح المصرى الحديث لا يزال نسخة من الفلاح المصرى القديم ولا تزال معظم الأدوات الزراعية والأساطير حول النيل والأرض والزرع هى نفسها على الرغم من جميع التغيرات والتطورات .

ولا يزال الكثير من الأساطير القديمة والخرافات حول السحر وتفسير مظاهر الطبيعة مندسا فى أوساط الفلاحين والعوام فى كل مكان وفيما يلى أمثلة على ذلك كله :

فهذا نشيد لأحد العازفين نقلا عن كتاب " من أدب الفراعنة " للاستاذ محمد صابر يقول فيه :

" تذهب الأجسام منذ القدم وتحل مكانها أخرى .

" والملوك الأقدمون ينامون فى أهرامهم .

" وكذلك يرقد النبلاء والعلماء والعظماء .

" وتهدمت المنازل التى شيدوها وزالت معالمها .
" مع عظمة أعمالهم .
" لقد سمعت حكم أيحوتب وحورداديف وغيرهما .
" الذين يتناقل الرجال حكمتهم .
" أين مقابرهم ؟ لقد زالت وتهدمت .
" وكأنهم لم يوجدوا .
" ولم ترجع إلينا روح لتنبئنا بما حل بهم وما لاقوه .
" لتطمئن نفوسنا قبل رحيلنا إلى حيث مضوا .
" ولتنس عقولنا ذلك ونطمئن .
" فامرح وانشرح واطرب ما دمت حيا .
" وادهن رأسك بالطيب .
" وتزين بالكتان الأبيض المعطر كالآلهة .
" واقض كل رغبات قلبك .
" إلى أن يحين يوم رثائك .
" حيث راحة القلوب .
" فلا يسمع صراخ وعويل الحزانى من فى القبر راقد .
" فاطرب وانشرح ولا تحمل هما .
" فلم يأخذ أحد ثراءه معه إلى القبر " .

أليس هذا النشيد خلاصة لأروح المصرية الباقية إلى اليوم ؟ أليس أخص خصائص المصرى أن يقول : " أحيني النهارد وموتنى بكره " " ما حدش واخد معاه حاجه " وأن يتصرف فى حياته على هذا الأساس ؟

إن دراسة مثل هذه الأغانى لتكشف لنا عن طبيعة النفس المصرية وهى طبيعة باقية إلى اليوم تتوارثها الأجيال، وتسهل علينا مهمة عقد الصلة بين القديم والحديث فى كل زمان .

ومثال آخر فى نشيد النيل وهو طويل نقتطف منه هذه الفقرات نقلا عن كتاب " على هامش التاريخ المصرى القديم " للمرحوم عبد القادر حمزة باشا .

"سلام عليك يا حابى . يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيي مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك . إنك الليلة تنتشر على الحقل التى يخلقها "رع"، إنك تعطى الحياة جميع الظمآنين . ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء . ومتى هبطت فإن

" جب " إله الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه . " ونابرى " إله الحبوب يقدم قربانه " و بتاح " ينشر الرخاء فى دار صناعته .

"أنت سيد الأسماك . متى جزت الشلال لم تعد الطيور ترتمى متردية على الحقول . أنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد" .

إلى أن يقول :

"أيها المعطى الخيرات الحقيقية، ومن تتجه إليه رغبة الخلق، ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب ، فإن أنت أجبت وأعطيت أمواج الأقيانوس السماوى ، فإن " نابرى " إله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك والطيور لا تتردى على الجبل .

" لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من حجارة الكريمة .

"لقد بدأوا يشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ؛ ويمطرونك برسائل الثناء عليك . ولا عجب فإن إله الفنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ويحب أن يتكاثر عدد القطعان .

" إنه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال" .

أليس هذا النشيد منبعثا من قلب مصر هبة النيل ؟ فإذا نحن أحيينا دراسته ودراسة أمثاله من الأناشيد فإننا نربط بين الحاضر والماضى برباط من الأحاسيس الباقية والموروثات الوجدانية الكامنة .

أما تغلغل بعض العقائد الشعبية وتسيابها فى نفوس العوام حتى اليوم فالأمثلة عليه كثيرة.

ذكر الأستاذ سليم بك حسن فى كتابه "مصر القديمة" تحت عنوان " بقرات تتقمص شجرة الجميز ولذلك أصبحت الجميزة مقدسة " هذه هى الفقرت :

"أما البقرات فكانت تعبد فى منطقة منف" البدرشين"وتقمصت روحها شجرة الجميز وكانت الجميزة فى هذه الجهة تسمى شجرة جميزة الجنوب . وكان يعتقد أنها جسم الالهة "حتحور" (البقرة) الحى على الأرض . وكانت الالهة نفسها تسمى سيدة شجرة الجميز الجنوبية.

" وكثيرا ما يشاهد على الآثار المصرية رسم شجرة الجميز والالهة مطلة من بين أغصانها على شكل امرأة وبيدها أبريق تصب منه الماء للسابلة والأموات فى وسط الجبانة . وقد بقى احترام الجميزة باقيا للآن إذ تزرع بجوار المقابر يستظل بفيئها، وتروى ظمأ الأموات، كما هو الاعتقاد السائد الآن بين عامة الشعب ويعد قطعها من الأمور المحرمة" .

وعنـد خسوف القمر نرى الصبية والعوام فى الصعيد يضربون على الصفيح والطبول وهم ينشدون "يابنات الحور سيبوا القمر،دا القمر مخنوق"...الخ . دون أن نعلم سببا لعقيدة أن القمر مختنق وأنهم يطلبون لإفراج عنه . فيقول الأستاذ سليم حسن بك فى كتابه ما قد يفسر هذه العقيدة الغامضة مع تحريف فى بعض الألفاظ والأسماء من جراء القرون الطويلة .

"ومما يسترعى النظر من بين معابد الآلهة المنتشرة فى الوجه القبلى معابد الإلهين : "حور" و"ست" إذ كانت لهما أهمية عظيمة فى طول البلاد وعرضها . وهنا يجب أن ننبه الأذهان إلى أن هـذين الإلهين لم تكن لهما علاقة فى الأصل بالإله " أوزير" أو الإله "ست" . بل فى الحقيقة كانا أخوين متخاصمين. فكان "ست" يمثل الظلمة الدامسة والهلاك ،على أن الإله "حور" كان يمثل النور الذى يسطع بين نجوم السماء ويحلق فى الفضاء على هيئة صقر عيناه الشمس والقمر . وهو يقوم بحرب أبدية على الإله "ست" دون أن تسفر انتصاراته المتوالية على القضاء على خصمه . وعند ما يحدث خسوف القمر يرى المصريون فى ذلك أن الإله "ست" قد اقتلع عين حور" .

فحور اسم الإله القديم قلبت فى لغة العوام "بنات الحور" بتأثير الإسلاميات الحديثة واقتلاع عين حور عدل إلى كونه مخنوقا . ولكن أساس الأسطورة واحد فى القديم والحديث .

ومما يذكره الأستاذ سليم بك فى كتابه كذلك أن الطائر المسمى "مالك الحزين" كان يعبد فى عين شمس وكان المعتقد أنه يلد على شجر فى معبد هناك ثم يقول : "ومن المحتمل أنها الشجرة القديمة المقدسة التى كان الآلهـة يكتبون على أوراقها أسماء الملوك تخليدا لذكراها ويقال : إن الشجرة التى تزار الآن بجهة عين شمس هى من نسل هذه الشجرة المقدسة" .

ومن مخلفات العقائد القديمة فى ألوهية الشمس مانراه فى الصعيد خاصة حيث يتوجه الناس بالسن المحلوعة فيقذفونها إلى قرص الشمس وهم يقولون : "خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال" معتقدين أن هذا يساعد على نمو سن غيرها أجمل منها .

ولا نريد أن نتكلم عن العقائد الخاصة بالسحر وتأثيرها فى القـديم والحديث فهى من أمهات العقائد المصرية الباقية على الرغم من اختلاف الديانات إلى اليوم وتعدد الثقافات .

فشعب يرتبط حاضره بماضيه كل هذا الارتباط لايتعب مؤلفى التاريخ فى بعث المـاضى وتصويره حيا ناميا متغلغلا فى كيان الأجيال . وعندئذ يشعر المصرى أنه قديم عريق وأنه ممتـد بلا انقطاع ، وأنه يحمل بين جنبيه قبسا من المجد العريق ويرث فى دمه بذور هـذا المـاضى المجيد .

صيد قطب